

اللغة والهوية عند مولود قاسم نايت بلقاسم.

أ. بن زينب شريف

باحث أكاديمي من جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر 2

cherifbenzineb@gmail.com

الملخص:

بين الهوية واللغة وشائج وعلاقات متنوعة، مفهومان يتجاذبان ويتكاملان في نفس الوقت، فإذا كانت اللغة لسان القوم ومنطقهم، فإن الهوية ذلك الكل المركب من المرجعيات العقائدية والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للتفاعل الاجتماعي.

مفهومان شغلا الراحل مولود قاسم نايت بلقاسم وإن كانت المسألة اللغوية يقدم فيها اللسان العربي عن الأمازيغي، إلا أن مسألة الأمازيغية لم يفصح عنها بل كان يلح لها فقط.

مولود قاسم وإن لم يؤسس لفكر فلسفي، إلا أنه اعتبر أن المسألة اللغوية أهم مصدر في إرساء الفكر وبناء المجتمع، فهي الوعاء الذي يحمي المجتمع ويضمن وجوده ضمن فسيفساء المجتمعات العالمية.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الهوية؛ مولود قاسم نايت بلقاسم.

« لقد كانت هذه اللغة في القرون الوسطى حتى بداية النهضة هي لغة العلم في جميع أنحاء العالم ... وتستطيع اليوم بخصائصها الذاتية أن تكون إحدى اللغات العلمية على مستوى العالم بأسره».

«إن الأمم بماضيها، الأمم بحاضرها ومستقبلها، وإذا كانت الأمة تجهل ماضيها، تفقد الثقة في حاضرها، ولا يمكن أن تنطلق في مستقبلها، وتبقى دائماً معقدة».

مقدمة:

بين الهوية واللغة وشائج وعلاقات متنوعة، مفهومان يتجاذبان ويتكاملان في نفس الوقت، فإذا كانت اللغة لسان القوم ومنطقهم، فإن الهوية ذلك الكل المركب من المرجعيات العقائدية والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للتفاعل الاجتماعي. مفهومان شغلا الراحل مولود قاسم نايت بلقاسم وإن كانت المسألة اللغوية يقدم فيها اللسان العربي عن الأمازيغي، إلا أن مسألة الأمازيغية لم يفصح عنها بل كان يلح لها فقط.

مولود قاسم وإن لم يؤسس لفكر فلسفي، إلا أنه اعتبر أن المسألة اللغوية أهم مصدر في إرساء الفكر وبناء المجتمع، فهي الوعاء الذي يحمي المجتمع ويضمن وجوده ضمن فسيفساء المجتمعات العالمية. يعتبر مولود قاسم نايت بلقاسم أنموذج المفكر النخبوي الفاعل والمؤثر في حياة المجتمع الجزائري خلال وما بعد الفترة الكولونيالية، فعلاً بعمله النضالي الثوري خلال الثورة التحريرية، وبمليتياته الفكرية العلمية خلال الاستقلال، لقد كان مولود قاسم

نايث بلقاسم واسع الثقافة والاطلاع على الثقافات الأخرى، مجيدا للكثير من اللغات بالإضافة إلى العربية، يجيد الألمانية والفرنسية والإنجليزية والسويدية، كما كان يتحدث اليونانية واللاتينية والسلافية والرومانية. حياة مولود قاسم بالرغم من قصرها (65 سنة) حياة مليئة بالجهاد على جميع الأصعدة، من جهاد في سبيل الوطن، إلى جهاد في رحاب الفكر والعلم، وهذا ما برز في نشاطه الدؤوب في ملتقيات، وندوات ومقالات. كان حياة مليئة بالفكر والجهاد والمواظبة والحب والتفاني. ومولود قاسم أحد القواسم الثلاثة التي عرفتهم الجزائر، قاسم رزيق، وقاسم زيدون المعروف ببلقاسم زدور ببلقاسم، وقاسم مولود¹.

مولود قاسم، الموسوعي مُختزلاً:

في الفاتح من جانفي من عام 1927 بقرية بلعيل من ولاية بجاية، شهدت عينا مولود قاسم نايت بلقاسم بن محمد أو سعيد بن علي البلعيلي العباسي البيجائي، النور وفيها نشأ وترى. حفظ القرآن الكريم في زاوية سيدي يحيى العدلي -تمقرة- على يد الشيخ المربي الفاضل محمد الطاهر بن مقران آيت علجت وعنه أخذ العلوم الأولى من توحيد وفقه وتاريخ وحساب، التحق بمدرسة التربية و التعليم بقرية قلعة بني عباس وهي من مدارس جمعية علماء المسلمين وكان أستاذه فيها الشيخ محمد الصالح بن عتيق، التحق

¹ - يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، الجزء 1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر،

الطبعة الأولى، 1995، ص 268.

بالریتونة عام 1946 لنيل شهادة الأهلية ومنها إلى جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ليتخرج من قسم الفلسفة بدرجة امتياز سنة 1954 درس في جامعات براغ، تشيكوسلوفاكيا وبون بألمانيا الغربية لإعداد أطروحة الدكتوراه في الفلسفة، لكن مشاغله حالت دون إتمامها. نشط في مكتب المغرب العربي بالقاهرة إلى جانب السادة: محمد خيضر، حسين آيت أحمد و أحمد بن بلة، ساهم في مفاوضات إيفيان بإعداد المادة التاريخية للوفد الرسمي المفاوض قصد التصدي لنوايا فرنسا الهادفة إلى فصل الصحراء عن شمال الجزائر.

ذكر في وثيقة كتبها بنفسه انه يكتب ويحاضر بخمس لغات هي العربية، الانجليزية، الفرنسية، الألمانية، السويدية ومعرفة متفاوتة بأكثر من عشر لغات أخرى. كما تقلد المرحوم عدة مناصب منها:

- مدير بوزارة الشؤون الخارجية.
- وزير التعليم الأصلي و الشؤون الدينية.
- مستشار في الرئاسة.
- مؤسس مجمع اللغة العربية و رئيسه.
- من آثاره :
- الجزائر (باللغة الألمانية) للتعريف بالجزائر و تاريخها لم يترجم.
- شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل 1830م في جزأين.
- ردود الفعل الدولية على غرة نوفمبر.
- إنية و أصالة.

- أصالة أم انفصالية.

وعدد لا يحصى من المقالات والدراسات والمحاضرات في مجالات وطنية وعالمية بمختلف اللغات، انتقل إلى رحمة الله تعالى في 27 أوت 1992م.

مولود قاسم وعناصر الهوية:

الهوية لغة واصطلاحاً:

تعتبر الهوية الدرع الواقي في وجه كل غزو فكري وضد العولمة المتوحشة، ومبحث الهوية من بين المباحث التي أرقّت مفكري الجزائر ومثقفها خلال وبعد الفترة الكولونيالية وقبل عرض التصوري القاسمي لمسألة الهوية يتوجب التعريف بها في اللسان اللاتيني واللسان العربي. لفظة الهوية يقابلها في اللغة الفرنسية IDENTITE وهي مشتقة من كلمة اللاتينية INDENTIQUE وهي تعني المماثل أو المشابهة²، وفي الأصل اللاتيني تعني الشيء نفسه أو الشيء الذي هو ما عليه، أي أن الشيء له الطبيعة نفسها التي للشيء الآخر³. ويرى جميل صليبا أن كلمة الهوية ليست عربية في أصلها، حيث اضطر بعض المترجمين فاشتق هذا الاسم من الرباط الذي يدل على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره وهو حرف " هو " كقولهم زيد هو حيوان أو إنسان⁴.

² -ANDRE, LALANDE: Vocabulaire Technique et critique de la philosophie (P.U.F), Paris, 1968, p.456.

³ - مجموعات مؤلفين، دراسات في القومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، ص 18.

⁴ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء 2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ب ط، 2982، ص 529.

وفي اللغة العربية نجد الدلالة اللغوية للفظـة " الهوية " نجدها مركبة من الضمير هو أضيفت له ياء النسبة التي تتعلق بوجود الشيء المعني كما هو في الواقع بجميع خصائصه ومميزاته التي يعرف بها، وبهذا فهي تعني اسم المكان أو الوجود على حاله أي وجود الشخص أو الشعب أو الأمة كما هي بناء على مقومات ومواصفات وخصائص تمكن من معرفة صاحب الهوية بعينه دون اشتباه مع أمثاله⁵.

أما من الناحية الاصطلاحية، نجد أن مفهوم الهوية قد تعددت حوله الآراء والمفاهيم وهذا حسب تعدد الاتجاهات الفكرية من علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وحتى الفلسفة، يعرف الدكتور ساطع الحصري الهوية على أنها مجموع الصفات أو السمات الثقافية التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى أمة من الأمم، وبهذه السمات يستطيعون التميز عن سواهم من أفراد الأمم الأخرى، كما أن الهوية تتمثل في اللغة والتاريخ المشترك، فوحدة اللغة تمثل وحدة الفكر ووحدة التاريخ تمثل وحدة الضمير⁶.

إذا كان مصطلح الهوية شائعاً عند المثقفين العرب، فإن مولود قاسم نايت بلقاسم يفضل مصطلح "الأنية" لأن مصطلح الهوية مستورد ودخيل على

⁵ - أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية: الحقائق والمغالطات، دار الأمة، الجزائر، ب ط ، 1996، ص 21.

⁶ - ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، دار العلم، بيروت، الطبعة 4، 1959، ص.ص، 26.25.

اللغة العربية، في حين نجد مصطلح "الإنية" له جذور في كتابات مفكري وفلاسفة الإسلام، ومن بينهم ابن سينا. في كتابه "الإشارات والتنبيهات" يحلل علي بن سينا ثنائية الجسم والنفس واثبات النفس يقول ابن سينا: «من رام وصف شيء من الأشياء وقبل أن يتقطن يثبت أنيته فهو معدود عند الحكماء من زاغ عن محجة الإيضاح»⁷، ومن خلال مفهوم النفس والإنية عند ابن سينا، ونظرية الرجل المعلق في الفضاء عبر مولود قاسم على واقع المجتمع الجزائري خلال الإستعمار الفرنسي فكتب يقول: «لقد كنا في العهد الاستعماري معلقين في الهواء بين عالمين منزوعة عنا جنسيتها الجزائرية وغير معترف ولا معاملين كفرنسيين ومع ذلك كنا كأكثر ما نكون اعتزازا بذاتنا وتعلقنا بمقومات شخصيتنا من دين ولغة وتقاليدها وبعدها عن كل ما يمس منها أو ينال من قدسيتها ولقد كنا نقاوم جميع الأمراض الاجتماعية والآفات المستوردة إلينا الغربية عنا وكان ذلك بدافع من الذود عن هذه الإنية وتلك الأصالة»⁸، فالهوية أساس بقاء المجتمعات ودرعها الواقعي، وأما بخصوص مصطلح الإنية الذي وظفها مولود قاسم كتب عنه يقول: «أقصد بالإنية ذلك الوعي الحاد بالذاتية والشخصية وهي تلك الإنية التي يتكلم عنها ابن سينا، والتي تتلخص في أنه كان تصور نفسه معلقا بين السماء والأرض وأن

⁷ - النفس البشرية عند ابن سينا، نصوص جمعها وحققها وقدم لها البير نصري نادر، بيروت، ب ط، 1986، ص 11.

⁸ - مولود قاسم نايت بلقاسم، أنية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1975، ص 104.

جسمه قد انتزع منه وفي حكم العدم، ولم يبق في تلك اللحظة وهو بين عالمين، إلا ذلك الوعي الحاد بوجوده وشعوره بذاته المتميزة القائمة بذاتها المستقلة عن غيرها وهذا التصور لابن سينا هو الذي كان الأصل في ذلك الكوجيتو المعروف الذي قول أنا أفكر إذن أنا موجود»⁹. ومن خلال هذا يتضح أنه لا يوجد بون بين مفهوم الهوية والإنية، فكلاهما يركز على خاصية الوعي المصاحب لأنا والذات.

مكانة اللغة في فكر مولود قاسم:

يعتبر الإنسان الكائن الوحيد الذي يمتلك من أنواع القدرات العقلية والسلوكية التي تجعله كائناً مميزاً واستثنائياً. فهو القادر على تذكر ماضيه، وإدراك حاضره ليستشرف من خلاله مستقبله، فلب القول، الإنسان هو الواعي والمدرك. ومما لاشك فيه أن الإنسان في تعاملاته اليومية مع الآخرين، وفي عملية نقل أفكاره إلى غيره يحتاج إلى لغة، ويمكننا استحضار مقولة سقراط لجليسه « تكلم حتى أراك»¹⁰، فبالغة نستطيع توضيح أفكارنا ونرفع الضبابية عند المتلقي.

ولا تزال اللغة، الوعاء الذي يبلور الإنسان من خلاله وعيه وفكره، وبها يبنى جسره التواصل مع الآخر. كما لا يمكننا الحديث عن فكر بدون لغة، تمنحه مسوغات الوجود ودلائل الحضور والتجلي، حيث أن كل نشاط

⁹ - المصدر نفسه، ص 54.

¹⁰ - إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الفلسفة، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ب ط، 1990،

فلسفي قائم على رغبة للإقناع عن طريق بسط المفاهيم بعيداً عن كل لبس أو غموض لغوي، وإن التميز اللغوي للكائن هو التعبير الأمثل عن كينونته، فمن خلال اللغة يفصح الكائن عن كينونته.

ولقد تعددت الآراء في أصل اللغة، وكُتبت نظريات فيها من الاختلاف والتباين مما فيها من التقارب، وإن بقي يجمعها الاعتقاد الأهم، بأن اللغة نظام اتصالي له غايات اجتماعية تواصلية. فإذا كان بن جني يعرف اللغة بكونها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »¹¹، أي لا تخرج اللغة عن وظيفتها التواصلية التبليغية، فإن الفيلسوف لالاند André Lalande يعرفها في "المعجم التقني والنقدي للفلسفة" فيقول: « اللغة بمعناها الواسع هي كل نظام من الرموز والإشارات يصلح أن يكون وسيلة للتواصل »¹².

أما إدوارد ساير Edward Sapir فيعرف اللغة على أنها « وسيلة للتواصل الإنساني تحديداً ... تهدف لتوصيل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نسق من الرموز »¹³، كما يرى ساير أنه يوجد تناسي عكسي بين كثرة حديثنا واستعمالنا للغة بمقابل طرح سؤال الماهية.¹⁴ وتعرف جوليا كرسطيفا Julia Kristeva اللغة على أنها « ذاك المسار التواصلي للخطاب

¹¹ - ابن جني عثمان أبو الفتح - نقلا عن - خليل حلمي، مقدمة لدراسة فقه اللغة، مصر، دار المعرفة الجامعية، ب.ت، ب.ط، ص 62.

¹² - ANDRE, LALANDE : Vocabulaire Technique et critique de la philosophie P.554.

¹³ -Edward Sapir ,le langage,trd :S.MGuillemin,Payot,paris.P12.

¹⁴ -Ibid,P7.

الجامع بين مرسل ومستقبل»¹⁵. فاللغة لا تخرج عن الإطار التواصلية، بين ملقي ومتلقي. إن المهمة الأساسية للغة هي وصف العالم وتصويره، وهذا التصوير خاضع لطريقة اللغة في وصفه، فالجمل الصادقة صور للحقائق، والعالم هو مجموع هذه الحقائق¹⁶. كما أن اللغة تلعب دوراً في وضع الفكر في إطار محدد من الكلمات المنتهية، فاتحة في نفس الوقت أبواب التساؤلات والدلالات غير المنتهية، في تشير إلى الوجود بإظهار الموجودات أو تخفيها، وتقدم فتوحات في إظهار الوجود أو تخفيه وتحجبه¹⁷. إن المهمة الأساسية للغة هي وصف العالم وتصويره، وهذا التصوير خاضع لطريقة اللغة في الوصف، فالجمل الصادقة صور للحقائق، واللغة هي مجموع القضايا¹⁸.

عُرف عن مولود قاسم ولعه الشديد وحبه الكبير للغة العربية وهو الذي خاض صراعات من أجل إقناع الرئيس الراحل هوارى بومدين من أجل إصدار أمرية رئاسية بتاريخ 16 أفريل 1976 التي نصت على البدء في عملية شاملة لتعريب التعليم بجميع فروع ومراحلها، مما ألب على الفرانكفونيون ودخل معهم في صراعات امتدت لسنوات عدة، ولا تزال بين التيار الوطني

¹⁵ -Kristiva Julia, le langage cet inconnu, éd du seuil, paris, 1981, P13.

¹⁶ - نجيب الحصادي، قضايا فلسفية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ليبيا، الطبعة الأولى، 2004، ص 45.

¹⁷ - ماهر عبد المحسن حسن، جادامير مفهوم الوعي الجمالي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ب ط، 2009، ص 92.

¹⁸ - فيتغشتين لودفيج، رسالة منطقية فلسفية، ترجمة عزمي إسلام، مكتبة الأنجلو سكسونية، القاهرة، مصر، 1968، ص 82.

والتيار الفرانكفوني¹⁹. فكانت العربية تحتل موقعاً مركزياً في فكر مولد قاسم وهذا لصلتها بالآنية والتجذر، وعن هذا الحب للغة العربية، تولدت عند مولود قاسم قناعات عميقة وواعية جعلته يؤمن بإمكانية أن تصبح العربية لغة علم وحياة فكتب يقول: «لقد انحدرت كل الحجج التي زعمت بأن العربية غير قادرة على ملاحقة العصر وإنجازاته العلمية. لقد كانت هذه اللغة في القرون الوسطى حتى بداية النهضة هي لغة العلم في جميع أنحاء العالم ... وتستطيع اليوم بخصائصها الذاتية أن تكون إحدى اللغات العلمية على مستوى العالم بأسره»²⁰. وإيماناً منه بهذه الأهمية التي تحتلها اللغة، كتب يعرفها: «إن اللغة ليست شكلاً أو أداة فحسب، بل هي محتوى أيضاً، إذ هي قالب تصاغ فيه أفكارنا وأحاسيسنا، نعبر بها عن كنهنا وحقيقتنا، تصطبغ بها هذه الأفكار والأحاسيس بالكما تتأثر هي، أي اللغة، بهذه الأفكار والأحاسيس التي تعبر عنها، والتي تحملها شحنة معنوية قوية تعطيها طابعها المميز لها والخاص بها»، ويضيف قائلاً: «إذا كانت اللغة شكلاً فقط، أي قالباً، كما يدعي هؤلاء، فالمعروف أن القالب يؤثر في محتواه، إذ يعطيه شكله، وحيث إن القالب يوضع خصيصاً للشيء الذي يراد صنعه،

¹⁹ - جريدة أخبار الأسبوع عن مقال معارك التعريف مع وزراء اللواء الفرنسي في الجزائر، الدكتور بن

علي محمد ، العدد 169 الصادر في جانفي 2005.

²⁰ - مجلة الأصالة العدد 45، ص 119.

فماذا نريد يا ترى أن نصنعه بأذهان أطفالنا الغضة؟²¹ واللغة عند مولود قاسم ليست إلا الصورة الخارجية للتفكير والإحساس، والواقع فهي أكثر من ذلك فهي تعتبر الصورة التي تعطي محتواها لونا، وشكلا، فهي ذلك التيار الذي يبعث الروح في جميع أركان الكيان الوطني²². ولكن الوصول إلى الاستعمال الجيد للغة يتطلب تضافر عدة جهود وأطراف مجتمعة، فمن القرار السياسي إلى المؤسسة التربوية ومعرجاً على الأسرة، هذه الأخيرة التي يتوجب عليها تشجيع استعمال اللغة العربية خاصة الأمهات، كأن يجرمن على أولادهم الترتن، وفرض التحدث باللغة العربية على الأقل في الوسط العائلي، وبهذا فهي تساهم في إتمام عمل المعلم في المدرسة²³. وهذه الأخيرة كذلك تحتاج لمجهود كبير من المعنيين بالأمر، وهم المعلمين والمعلمات، فيتوجب عليهم أن يفرضوا على المتعلمين ألا يتكلموا إلا باللغة العربية الفصحى داخل المدارس خلال الدرس وحتى خلال حصص اللعب، فالاستعمار الفرنسي ومن خلال معلمو الفرنسية كانوا يفرضون التحدث باللغة الفرنسية داخل المدرسة وجوارها. وكانوا يعاقبون كل تلميذ يتلفظ

²¹ - مولود قاسم نابت بلقاسم، محاضرات ملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامي وهران، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، دار البعث، الجزائر، 1971، ص 14-15.

²² - مولود قاسم نابت بلقاسم: الفكر الجزائري الموسوعي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف - المركز الثقافي الإسلامي، الجزائر، 2013، ص 195.

²³ - المرجع السابق، ص 205.

بلفظة واحدة غير فرنسية²⁴. وبهذا استطاع الاستعمار الفرنسي غرس اللغة الفرنسية عند المتعلمين ونشرها. كما يتوجب على رجال الإعلام توظيف اللغة العربية الفصحى والابتعاد عن العامية، فالإذاعة والتلفزيون يلعبان دورا مهم في نشر اللغة العربية من خلال تقديم حصص تعليمية ومحاضرات ودروس في اللغة العربية وحتى مسرحيات. كما يتوجب على النخبة المثقفة التخلص من التقليد للغرب والتباهي بالثقافة الفرنسية وحتى من المسؤولين. مع ضرورة تعريب التعليم في الجامعات والمعاهد وإنشاء معاهد خاصة لتلقين اللغة العربية الفصحى داخل الوطن وخارجه. خاصة في العواصم الأوربية لتعليم الجالية الجزائرية هناك. وبهذا نستطيع جعل اللغة العربية لغة علم و حياة وسلوك يومي في البلاد العربية جمعا²⁵. مولود قاسم باطلاعه الواسع على ثقافات وتاريخ باقي الأمم ساق مثال عن الفكر القومي الألماني، ممثلا في الفيلسوف الألماني يوهان غوتليب فيخته، هذا الأخير الذي يركز على اللغة في تحديد الهوية ويقول في كتابه " نداء إلى الأمة الألمانية": «أن وجود أمة من الأمم بوجود إنيتها التي تتكون من شخصيتها، وأن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة: الدين، واللغة، وحب الوطن»²⁶، ويضيف فيقول على لسان فيخته: «إن اللغة هي رمز وجود الأمة، وبقدر أصالة اللغة

²⁴ - المرجع نفسه، ص 203.

²⁵ - المرجع السابق، ص 205.

²⁶ - مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالة أم انفصالية؟، الجزء 2، المؤسسة الوطنية للكتاب،

الجزائر، الطبعة الأولى، 1991، ص 367.

والحفاظة على اللغة الأصلية أو فقدانها تكون المجموعة البشرية أمة وشعبا أصيلا أو مجرد أشتات فحسب»²⁷ فاللغة هي أساس وجود الأمة ورمزها، فالعلاقة الموجود بينها وبين الإنسان علاقة وطيدة، فاللغة هي ذاكرة الأمة التي تحفظها من الزوال، تحفظ تصورات ومفاهيم، و عادات وطباع وتقاليده المجتمع، فالأمة التي تفقد لغتها تفقد شهادة هويتها والخيط الذي يربطها بأجدادها، واللغة تؤثر تأثيرا كبيرا في الشعب المتكلم بها، حيث يعتمد إلى التفكير بها والتعبير عن عواطفه وإرادته من خلالها. فالشعوب المتأثرة بلغة غير لغتها تبتلع وبدون شعور منها حتى الشتائم التي توجه لها بدون وعي وشعور منها²⁸. ولكن السؤال الذي طرح ولا يزال يطرح:

هل اللغة العربية لغة علم؟

يرى مولود قاسم أن اللغة العربية، يوم كان الغرب الأوروبي يتخبط في ظلاميته، كانت هي لغة العلم قبيها كتب ابن سينا، والخوارزمي، وابن رشد مؤلفاته، حتى أنه أثناء» النهضة الأوربية كان المتجادولن في جامعات نابولي والسوريون يبدأون النقاش بسؤال هل أنت مع ابن رشد»²⁹، فهذه اللغة سحرة حتى الملوك والقيصرة والأباطرة، فقيصر ألمانيا فريدريك الثاني يفضل التكلم باللغة العربية مع العلماء مفضلا إياها على اللغة الألمانية، كما كان علماء ألمانيا وفرنسن يقبلون على تعلم اللغة العربية ويفضلونا عن اللغة

27 - المصدر السابق، ص 369.

28 - المصدر السابق، ص 371.

29 - مولود قاسم نايت بلقاسم، أنية وأصالة، ص ص، 46، 47.

اللاتينية وما نسلخ عنها من لغات³⁰. ويرى مولود قاسم أن اللغة العربية هي الحبل السري وحبل الانتماء الحضاري الذي يربط الأمة الجزائرية بالأمة العربية الإسلامية، وبالرغم من كل الأصوات التي بدأت تنادي بضرورة استعمال اللغة الفرنسية كبديل عن اللغة العربية، وجد نفسه مولود قاسم يتساجل مع هذا أصحاب هذا التيار التغريبي، فانبرى يرد عليهم كاشفا حقيقة الدوافع الإستيلاية التي دفعتهم للوقوف هذا الموقف اتجاه لغة الضاد، فكتب يقول: «نريد من البعض الإقلاع عن الزعم بأن العربية عاجزة عن التعبير عن العلوم الحديثة، فالعجز ليس عجز اللغة وإنما عجز الأدمغة عن التفكير المستقل، وعن الإنتاج والبناء على أساس تراث الأجداد، تراث الحضارة الإسلامية العربية»³¹.

وبالرغم من المكانة التي احتلتها اللغة من فكر مولود قاسم، إلا أننا نجد يحذر من إمكانية استغلالها مدخل للتفريق بين المسلمين، وتصبح معول هدم لا بناء، ولهذا نجد في تعقيبه على الملتقى السابع للفكر الإسلامي يحذر وبشدة، فالإسلام لم يحصر في اللغة العربية بل هو أشمل وأوسع من كل هذا، والإسلام لا يعترف بهذه العنصريات، لا يعترف بالجنس، وحديث الرسول الأعظم "كلكم لأدم وآدم من تراب.. لا فضل لعربي على أعجمي ولا

³⁰ - المصدر نفسه، ص 49.

³¹ - المصدر السابق، ص 51.

لأعجمي على عربي إلا بالتقوى" فهذا الدين رفض العنصرية، لذا فهذه الكلمة عربي أرجو ألا تكررهما مرة أخرى في هذا السياق³²

الدين الإسلامي والتأصيل للهوية:

إذا كانت اللغة المقوم الأساسي في بناء الهوية، فإن الدين عند مولود قاسم مقدم على كل المقومات الأخرى، فالدين هو السياق الروحي، ودوره في بناء مجتمعات شمال إفريقيا، وبلورة شخصية وإضفاء طابع هوياتي جديد، فاستطاع المحافظ على هذا النسيج المجتمعاتي من خلال سماحة الدين، فالدين في نظر مولود قاسم يعتبر ينبوع التجدد الروحي وإكسير المقاومة والإصرار على تحقيق البقاء والرقى، لهذا نجده يلح على ضرورة غرس القيم الدينية في نفوس الشباب بمختلف الوسائل³³. فالدين الإسلامي عند مولود قاسم ليس مجرد طقوس تعبدية يومية أو موسمية بل هو أنفاسنا وأنفاس وجودنا وهواء حياتنا³⁴. ويكتب مولود قاسم عن الإسلام قائلاً: «الإسلام ثورة شاملة لمختلف النشاط الإنساني، بما يشتمل عليه من قيم ومعان، ويحمله من روح لا تكتفي بالترقيع والتصليح، وإنما تتوق دوماً إلى التغيير الجذري، روح يتمثل فيها بكل معاني الكلمة ما نسميه اليوم بالثورة التي تقوض الهياكل القديمة المهلهلة، وتقيم على أنقاضها صروحاً جديدة شاحخة تستعصي على

³² - المصدر نفسه، ص 441

³³ - المصدر السابق، ص 234.

³⁴ - مجلة الأصال، العدد 45، ص 118.

الحدثان»³⁵. فالدين من أهم المقومات التي جعلت المجتمع الجزائري يحتفظ بشخصيته القومية³⁶، ويتصدى لكل محاولات تغريبية تنصيرية خاصة الجمعيات التبشيرية خلال الفترة الكولونiale. فالمناعة التي يزرعها الدين في نفوس أفراد المجتمع، هي التي تضمن الصمود أمام كل الحملات التبشيرية، فهمة المبشر ليس تنصير المسلم أو المسلمة، بل هو يدس السم في السمن، ويروم من خلال ضرب الدين الإسلامي من خلال إضعافه بجذب أتباعه بشتى الطرق والأساليب. وكما هو معروف أن الموسوعة مولود قاسم قد نهل من العديد من العلوم من فلسفة وتاريخ وعلم الاجتماع وثقافة إسلامية واسعة، بالإضافة تحكمه في العديد من اللغات، مكنه من تقديم نماذج عالمية أولت الدين الأهمية القصوى في المجتمع ومنهم الفيلسوف الألماني فيخته، ويقول هذه الأخير عن الدين: «إذا كانت في الدين تعزية للعبيد المضطهدين عن عبوديتهم، فإن الروح الدينية في الواقع هي التي ينبغي أن تحث هؤلاء العبيد على رفض عبوديتهم تلك، وعلى تحرير أنفسهم»³⁷ فالدين هو القادر على تحرير الأبدان بعد ما يحرر العقول، والدين لا يكون هدفها العالم السماوي فقط، بل الحياتين الأرضية والسماوية، وكل من لائمن بالحياة الأرضية مصيره الزوال. لهذا يتوجب على الدولة الاعتناء بالتربية الدينية من

³⁵ - إنية وأصالة، ص 211.

³⁶ - عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث، قسنطينة، الطبعة 1، 1965، ص 323.

³⁷ - أصالة أم انفصالية، ج 2، ص 368.

خلال تشيد المعاهد وتأصيل التعليم الشرعي وغرسه في نفوس المتعلمين منذ الفترات الأولى للتعليم.

الخاتمة:

بعد عرضنا لمفهوم الهوية وعناصرها خاصة مفهومي اللغة والدين، يمكننا القول أن المفكر الموسوعي مولود قاسم يعتبر بحق فلتة من فلتات الزمان قلما يوجد بها، حيث استطاع أن يؤسس بنظرته الاستشرافية للدور الواقعي للأمة وخاصة ونحن نعيش عصر العولمة وتفتتت المفتت وصهر الأنبيات، تارة باسم حوار الحضارات وتارة باسم التعايش والكونية. ولا ينكر فضائل هذه القامة الفكرية الجزائرية إلا جاحد، فهاهو التعليم الأصلي والتعريب وما طعم به المجتمع الجزائري من إطارات خلال الثمانيات والتسعينات.

مولود قاسم بالرغم من حبه للجزائر واعتزازه بالانتماء التاريخي الحضاري إلى الأمة الإسلامية، لم يمنعه هذا من الدعوة إلى الإسلام بأسلوب جديد عصري، وهذا بالتأسيس لمعاهد العلوم الإسلامية من الناحية الهندسية ذات طابع إسلامي، ومن الناحية التكوين عصرنة التدريس، آمن بالحوار بين الحضارات من غير التخلي عن الهوية والاعتزاز بها.